تعاليم سقراط

(تابع ما قبلهُ)

في العدل

عرَّف سقراط العدل بقولهِ : « اني لم اشهد زوراً ولا اقتربت على احد ولا اوقعت بالاصدقاء ولا فرقت بين الاهلين »

روى كسينوفانوس ان الشعب الاثيني طلب مرَّة قتل تسعة من قواد الجيش بلا مراعاة نصوص الشرائع واحكامها فابى سقراط الموافقة على هذا الطلب على رغم سخط الشعب عليهِ وتهديد بعض ذوي النفوذ لهُ ذلك لانهُ كان قد عقد النية على ان لا يصوت في القرارات والاحكام الاَّ بموجب الشرائع . وهو لم يكترث بمقاومة ارادة الشعب هذه مقاومة لم يسع احد غيرهُ الثبوت عليها بل قاوم ايضاً ارادة المجلس الذي امرهُ يوماً باحضار احد الرعايا للحكم عليهِ بالقتل ظلماً . ثم ان العادة كانت جارية عند اليونان في ذلك الزمان ان يسترحم المحكوم عليهِ القضاة فينالهُ العفو اما سقراط فلم يكن من اولئك الذين يسترحمون ويستعطفون بدلك على ذلك ان ميليتيوس [1] لما رماهُ بالتهم الكاذبة فضَّل الموت مع مراعاة الشرائع على الحياة عابئاً بها

واراد هيبياس ملك ايليا ان يسمع بنفسهِ تعريف العدل من فم سقراط فذاكرهُ في ذلك فاجابهُ : قلت ان العدل انما يقوم بمراعاة الشرائع فقال هيبياس ولكن الشرائع تتغير فاجاب سقراط نعم ولكن يجب مراعاتها ما دامت موجودة كما يؤدي الجندي الواجب المفروض عليهِ ابان الحرب مع علمهِ بان الحرب يعقبها السلم . واعلم ان ليكرغس انما جعل لقدمونيا [2] متفوقة على سائر الجمهوريات لانهُ جعل فيها الشرائع مرعية الجانب ومحترمة شديد الاحترام . ثم ألا تعلم يا هيبياس انهُ توجد شرائع غير مكتوبة ؟ فاجاب هيبياس

---

(١) هو احد الاثينيين الثلاثة الذين اتهموا سقراط باضلال الشبان واثارة الخواطر . اما الاثنان الآخران فهما انيتوس وليكون . وقد ذهب انيتوس وميليتوس مثلاً للدلالة على كل حسود ساقل يوجه مطاعنهُ ونبهة الى النوابغ وارباب العجن للايقاع بهم

(٢) اسبارطة او لقدمونيا مدينة شهيرة من مدن اخريقيا القديمة وقاعدة بلاد لقونيا او جمهورية اسبارطة . وليكرغس كان شارع هذه الجمهورية - عاش في القرن التاسع ق م

ثم وهي التي تراعى في جميع البلدان قال سقراط وهل تستطيع ان تقول ان الانسان هو الذي وضع هذه الشرائع ؟ قال وكيف لا اقول ذلك ؟ ومن هو الواضع لها اذاً ؟ قال سقراط اظن ان الآلهة انفسهم هم الواضعون لها اذ ان اولى هذه الشرائع انما هو تعظيم الآلهة وتكريم الوالدين ثم نفي التزيجة بين الابناء وذوي القربى فقال هيبياس ولكن الناس قد خالفوا هذا النص الاخير . فاجاب سقراط انما الناس يعبثون بجميع الشرائع البشرية ولكن اذا لم يعاقب المرء على خرقه هذه الشرائع فليس الامر كذلك في الشرائع الالهية . مثال ذلك ان التزوج بين الاقارب والابناء ينشأ عنهُ نسل ضعيف وهذا هو العقاب بعينهِ . ثم ان من الشرائع غير المكتوبة ما يقضي برد الاحسان الى فاعلهِ بحيث ان كل من خالف هذا النص لا يجد لهُ اصدقاء مخلصين بل يضطر الى البحث عن خلق يفضونهُ (١) . اذاً فكل شريعة غير مكتوبة تحوي عقاباً لمن يخالفها وهي من صنع شارع اسمى منزلةً من الانسان . ولما كان الآلهة هم الآمرين بالعدل دون سواهم فقد شاؤوا ان يكون هو والشرع شيئاً واحداً بلا فرق بينهما — الى ان قال — انما ذوو العدل هم العارفون باحكام الشرائع البشرية ونصوصها دون سواهم

في واجبات الحكّام

هذه المادة من اكثر الامور السياسية التي اهتمّ بها سقراط فهو يقول انهُ لا بدّ للراغبين في الاحكام من احراز المعارف التي تؤهلهم لسياسة البلاد كما يجب . ولا نسلّ عن التقريع الذي يوجّههُ الى الطامعين في الحكم وهم جهلة لا يفقهون من معناهُ شيئاً . قال : ومثلهم في ذلك مثل الذين يحصلون على دراهم او شيء آخر ذي قيمة من طريق الاحتيال والمخاتلة بل ان احتيالهم اشدّ من احتيال هؤلاء واعظم لان الحاكم انما يتولى ادارة المصلحة العامة لا مصلحة الخاصة . الا تعلم لماذا يسمي هوميروس اغاثنون راعي الشعب ؟ لان رئيس الحكومة يجب عليهِ الاعتناء برعيتهِ كما يعتني الراعي بقطيعهِ . اذاً بما تقوم واجبات رجل الحكومة ؟ تقوم في الادارة الداخلية بانماء ثروة البلاد وفي الاسواق العمومية بايقاف رحى الشقاق وتهدئة الخواطر وبث روح الاتفاق . وفي الحرب بالعمل على الفوز والنصر . وفي المعاملات الخارجية باكتساب الاصدقاء لا الاعداء

---

(١) وفي هذا المعنى اشار الشاعر بقوله :

اذا لم يكن غير الاسنة مركباً فلا بدّ للمضطر الاّ ركوبها

ومن اقواله ايضاً بهذا الصدد : ان افضل الزعيم الصالح يقوم بجعل الناس الذين يسوسهم سعداء . وقد سأله بعضهم كيف تفوّق ثمستوكلس على جميع مواطنيه حتى ان جميع الانظار كانت تتجه اليه عندما كان البلد في احتياج الى رجل فاضل ام بفعل قوى عقلية طبيعية فائقة الحد ؟ فاجاب سقراط انهُ لمن البساطة ان يُظن ان المرء لا يتأتى لهُ ان يكتسب المهارة في اقل الفنون وادناها بلا واسطة معلمين ماهرين وان اصعب صناعة وهي صناعة الحكم تأتي الناس من تلقاء نفسها . ان الملوك والولاة الحقيقيين ليسوا الذين يحملون الصولجان ولا الذين ينتخبهم الشعب او يقع عليهم الحظ بل الذين يعرفون شؤون الحكومة وعلى ذلك فربّان السفينة انما هو العارف بادارة دفتها وليس صاحبها وكذلك قل عن صاحب الحقل فانهُ ليس بامام في الزراعة ولا المريض بامام في الطب

انما يقوم اغناء ثروة البلاد بمعرفة الدخل والوقوف على حالة المعادن وسد النقص الحاصل في الغلة والتعويض عنهُ بشيء آخر ودرس مسألة النفقات والغاء ما لا فائدة منهُ ولا لزوم لهُ والنظر في ما اذا كانت الغلة كافية لسد حاجيات السنة واستطلاع قوات البلد الحربية براً وبحراً وكذلك قوة العدو ومعرفة الجهات التي يجب ان تقام فيها الحاميات وقوتها وحسبان مقدار المؤن اللازمة للجيش

ومن رأي سقراط ان علم معرفة البشر هو افيد علم لادارة شؤون الحكومة . دفع يوماً احد الفتيان الى استاذ في فن الحرب يدعى ذيونيسودورس فلما عاد اليهِ سألهُ قائلاً : ما الذي علمك اياهُ استاذك ؟ فاجاب علمني ان اصف العسكر في الحرب قال سقراط وكيف يجب صفهم ؟ فاجاب التلميذ يُوضع الاقوياء في المقدمة والمتوسطون في الساقة والضعفاء في الوسط فقال سقراط وهلاّ يجب تغيير هذا الترتيب ؟ التلميذ — لم يقل لي المعلم شيئاً عن ذلك سقراط — ولكن اذا اريد الاسراع الى الغنيمة الا يجب وضع الطامعين في المقدمة ؟ واذا اريد اقتحام المخاطر بلا نظر الى المنفعة الا يجب وضع طالبي المجد في الصف الاول ؟ فاجاب التلميذ لم يقل لي ذيونيسودورس شيئاً عن ذلك . فقال سقراط عُدْ اذاً الى معلمك وذاكرهُ في الامر تراهُ قد احمرّ خجلاً لانهُ اخذ منك دراهمك وتركك سابحاً في جهلك

وفوق هذا كلهِ فقد كان سقراط يطلب من الطامعين في الحكم التمرّن على الكلام . قال لهُ بعضهم ذات يوم وكان قد عين في الجيش قائد فرسان : اتدعي انهُ يلزم تمرين لساني على الكلام او تربية ملكتي على الخطابة ؟ فاجابهُ سقراط : وهل تظنّ يا صاح انك تلقي اوامرك على جندك وانت ساكت ؟ وقال ايضاً لاحد تلاميذهِ في هذا المعنى : اذا

شئت ان تعدّ نفسك للحكم فعليك اولاً باصلاح بيت عمك المتداعي للسقوط . فاجابهُ التلميذ : ولكن ماذا اصنع وعمي لا يصغي كلامي اذاً صاغية ؟ فقال الفيلسوف : ما الذي تصنعهُ اذاً يا صاح لو دعاك الامر يوماً الى اقناع جميع الاثينيين وعمك منهم ؟

وفضلاً عن ذلك فان سقراط كان يتطلب من المتطلعين الى ولاية الاحكام موهبة طبيعية لا تكسب بالعمل الا وهي موهبة القيادة وهاك ما قالهُ اشخوماخوس وهو الذي ذكرهُ سقراط كمثال لرب البيت[1] «اما في ما يتعلق بمزية القيادة تلك التي تتفق مع كل صناعة من الصنائع — مع الزراعة او تدبير المنزل او ادارة الجيش — فاني اعترف بان ليس جميع البشر متحلين بها . مثال ذلك سفينة تمر في عباب الماء ويجب ان تقطع مسافة سفرها في يوم واحد فان من الربانية ممن لهم مقدرة على دفع الملاّحين الى العمل بطيبة خاطر . ومنهم من ليسوا متصفين بهذه المزية فيقضي الملاحون مضاعف الوقت في السفر نعم ان المسافر مع اولئك ينزل من البحر تعباً منهوكاً الاّ انك ترى الملاحين والربانية مسرورين بعضهم من بعض اما مع هؤلاء فيسير المسافر بلا تعب ولكن الجفاء ضاربة اطنابها بينهم . وكما قلت عن ربان السفينة وملاّحيها كذلك قل عن قوّاد الجيش فان بعضهم يضمّ الى لوائهِ من العسكر رجالاً لا يريدون اجهاد النفس واقتحام المخاطر ولا يتنازلون للامتثال والطاعة الاّ عند الضرورة القصوى ويفتخرون بمقاومة قائدهم ولا يخجلون من المزيمة والانكسار . وترى البعض الاخر من اولئك القواد وهو احسن حالاً واسمى خصالاً من الاولين يضم الى لوائهِ هؤلاء الجنود بعينهم فيجعلهم يخجلون من الاعمال الشائنة ويقنعهم بوجوب الطاعة والامتثال بل يحبّب اليهم الخضوع والابتهاج ويدفعهم الى الاقدام على الاعمال وتجشم المشاق والاخطار بكل طيبة نفس . فقوّاد هذه طائفة تطمع الجند في اتيان عمل عظيم تحت لوائهم وان الزعيم الذي يستقيل اليهِ النفوس بهذا المقدار لهو مسلح بقوة حقيقية . ثم ان من كان لهُ جسم قوي وكان معتاداً لتليب الريح ورمي النبل وركوب الخيل الجياد ولبس الدروع واقتحام الاخطار في مقدمة الجند فذلك ليس بالقائد بل القائد الحقيقي هو الذي يحملهم على اللحاق بهِ الى ساحة الوغى وركوب الاهوال على اختلاف انواعها لان الذي يستطيع بفكرهِ ان يحرّك كثيراً من السواعد والايدي يمكن ان يقال عنهُ ان لهُ ساعداً مفتولاً ذلك هو الرجل بالحقيقة الرجل العظيم الذي يأتي اعمالاً خطيرة لا بقوة ساعدهِ بل بقوة فكرهِ وارادتهِ

(١) راجع فصل الواجبات بين الزوجين

في المحبة او الاحسان

هذه الفضيلة لا نقلّ شأناً عن فضيلة العدل ان لم تكن اجل منها واعظم . والظاهر ان كينوفانوس لم ينقل لنا شيئاً عن سقراط خاصاً بهذا الموضوع ولكن لدينا حياة هذا الفيلسوف العظيم وهي كلها ساطعة بالسجايا الحميدة من مثل الحنو والسخاء والشفقة والمسامحة والمروءة ونحو ذلك . على ان فوق تحليهِ بهذه العواطف الشريفة والخصال الحميدة كان يحث تلاميذهُ على تزيين نفوسهم بها ايضاً . روي ان بعضهم التقى مرة برجل في الطريق فحياهُ فلم يرد عليهِ التحية فتميز غيظاً وذاكر سقراط في ذلك فقال لهُ سقراط «ماذا كنت تفعل لو صادفت رجلاً مشوه الخَلق هل كنت تحنق عليهِ لنقصان خلقهِ فلماذا تغتاظ اذاً ممن هو ناقص الخُلق ؟ . وروي ايضاً ان بعضهم اصطدم مرة بسقراط وهو سائر في الطريق فضحك سقراط وقال للذين وحشوا للامر: هل اذا رفسني حمار أأذهب واقاضيهُ الى الحاكم ؟ هذا ولا حاجة الى التنويه بالصبر الجميل الذي اعتصم بهِ في احتمال زوجتهِ كسنتبي فانهُ جرى مجرى الامثال بل لا يُعلم عنهُ انهُ غضب مرة على احد . وكان يغتفر الشتائم ويوصي بالحلم والمسامحة . ولم تبدر منهُ سيئة او اهانة نحو الحسّاد الذين رموهُ بالتهم او القضاة الذين حكموا عليهِ بل رضخ للحكم وهو ثابت الجأش . وقد اقام في السجن ثلاثين يوماً لم يبدُ منهُ تذمّر ولا شكوى ولا اضاع شيئاً من لين طباعهِ وجذالتها الى آخر نسمة من حياتهِ

وكان هرموجينُس قد حاول ان يدفع عنهُ التهم الموجهة اليهِ فقال لهُ : «اتعجب من ان ترى الآلهة يحتقرون فتاتي منذ الآن ؟ اعلم اني لا اعترف لاحد بانهُ قضى حياة اعذب من حياتي واحلى اما اذا عشت اكثر من ذلك فلا بدّ لي من ان اقاسي شرور الشيخوخة ومتاعبها فان بصري وسمعي يضعفان ويزداد فكري سوءاً ويعسر عليّ تعلّم الاشياء وتميل ذاكرتي الى الانحطاط فينتابني النسيان فهل يطيب العيش مع كل هذه المصاعب والمتاعب ؟ ولكن ربما قلت لي يا هرموجينس اني اذا متّ الآن انما اموت ظلماً وعدواناً فاجيبك على ذلك بان العار لاحق ولا شك بالذين يقضون عليّ جوراً . انظر الى اولئك الظالمين من المتقدمين ترَ انهم لم يخلّفوا مثل الذكرى التي خلّفها المظلومون . وعليهِ فان الناس سينظرون اليّ بعد موتي بغير العين التي ينظرون بها الى الذين قضوا على حياتي وسيكون لهم نحوي من الشعور غير ما يشعرون بهِ الآن . سيعلنون على رؤوس الملا اني لم آتِ الظلم ولا اضللت احداً بل كان همي منصرفاً ابداً الى ترقية جميع الذين تقرّبوا اليّ وألفوني .»

وكثيراً ما كان يحرّضهُ البعض على الهرب من السجن فكان يقول لهم : « وما الذي اصنعهُ بالحياة ؟ فاني اذا رحلت الى مدينة اخرى غير اثينا القيت فيها عين الخطب التي كنت القيها هنا فاذا منعوني عن ذلك كانت حياتي باطلة لا فائدة منها . واذا خالفت الاوامر وواصلت السير في منهجي كان نصيبي هناك مثل نصيبي هنا فالاولى بي اذاً ان ارضى بنصيبي الاول »

وزارهُ تلاميذهُ يوماً فرأوا فيهِ آثار القيود التي كان مكبلاً بها فطوى احدى ساقيهِ وكان فعل القيود قد اخذ منها كل مأخذ ودلكها بيدهِ قائلاً : « ما اغرب اللذة والألم ايها الاخوان فانهما ضدان لا يجتمعان فاذا رأى المرء في يومهِ لذةً فلا بدَّ من ان يتوقع ضدّها غداً . واني آسف لكون ايسوبس[1] لم يصنّف حكاية في هذا المعنى فانهُ كان يقول « ان الله لما اراد ان يوفّق بين اللذة والألم ولم يُفلح ربطهما معاً بسلسلة واحدة فاصبحا ضدين متلازمين » . وقد جربتُ هذا بنفسي لاني اشعر الآن باللذة بعد الألم الذي اعتراني من فعل القيود

وكان في سجنهِ يخاطب الحرّاس بالدعة واللطف قال لهُ احدهم يوماً : لستُ كسائر السجناء الذين يشعوتني لفظاتٍ وسباتٍ فانك تعاملني بلطف واحسان لم ارَ نظيرهما حتى الآن . ورأى يوماً من بعض تلاميذهِ غمًّا ويأساً على سلامتهِ فقال لهم : ماذا تصنعون

---

(١) رجل يوناني مصنف حكايات كان عبداً ثم أُعتق ومات مصلوباً عليهِ بالقتل في القرن الخامس ق . م . يحكى ان سيدهُ امرهُ مرة بالذهاب الى السوق وشراء احسن الاشياء الموجودة فيها — وكان قد أولم وليمة — فذهب ايسوبس واتى ببعض السنة ذبيات الاربع وطبخها على جميع اصناف الفنّ ووضعها على مائدة الطعام . فلما ذاقها المدعوون عافتها انفسهم فقال لهم ايسوبس : يا قوم هل من شيء احسن من اللسان في كل زمان ليس هو رابطة الحياة المدنية ومفتاح المعارف والعلوم والناطق بالحق والصواب أليس الواسطة لتعمير البلدان وتهذيبها وتثقيف العقول وتهذيبها واقناع المجالسين في الاندية والجتمعات وبهِ يؤدي المرء اول المفروض عليهِ ألا وهي حمد الآلهة . فاجابهُ سيدهُ وقد حاول ايقاعهُ في الارتباك اذاً فعد غداً الى السوق واشترِ لي اقبح الاشياء التي تجدها هناك . فلما كان يوم الغد لم يصنع ايسوبس على المائدة من اصناف الطعام سوى الالسنة فقط قائلاً : ايها السادة ان اللسان مصدر الخاصمات ومنشأ الحروب والمنازعات . ثم انهُ الناطق بالحق ولكن الناطق ايضاً بالباطل والغلط وهو فرق ذلك سبب خراب البلاد وشقاوتها . واذا كان ناطقاً من جهة بحمد الآلهة وشكرانهم فانهُ من جهة اخرى ناطق بالسباب والشتائم

هذا وقد ذهبت السنة ايسوبس مثلاً كناية عن كل ما يمكن حملهُ على قارئهِ متناقضين او كل ما يحتمل المدح والذم معاً

يا اخواني الا تعلمون اني ابعدت النساء عني حتى اجتنب مثل هذا المنظر ؟ وذلك لاني سمعت انهُ يجب على الانسان ان يموت وهو يسمع الكلام الصدق

ومن شمائل الغرّاء ما رواهُ عنهُ افلاطون قال : « كانت العادة شائعة عند قدماء اليونان ان يغسلوا الميت قبل دفنهِ وكان هذا العمل خاصاً بالنساء دون الرجال وكان سقراط يرثي لهنَّ لقيامهنَّ بهذا العمل المحزن فاراد ان لا يجعل لهنَّ من موتهِ سبيلاً لذلك وفكّر في تدبير حيلة لتخليصهنَّ . ففي آخر لحظة من حياتهِ وكان جالساً مع تلامذتهِ يجاذبهم اطراف الحديث قال لهم : امهلوني قليلاً ريثما انزل الى الحمام فاني اريد ان اوفّر على النساء هذا العبء الثقيل عبء غسل جثتي . قال ذلك ثم نزل الى الحمام ولما انتهى تناول كأس السم وجرعها ولم يبدُ على وجههِ شيءٌ من الاضطراب او التغيير ثم اخذ يعمل ما يساعد على سريان السم في جسمهِ ثم استلقى على فراشهِ واسلم الروح »

قال كسينوفانس : « هذا ما كان عليهِ سقراط وهكذا عرفتهُ . فقد كان تقيّاً ورعاً الى حد انهُ لم يكن يجري شيئاً الاَّ بعد مشاورة الآلهة . وعادلاً الى حد انهُ لم يمسَّ احداً بسوء بل كان يحسن الى جميع المتقربين منهُ . وقنوعاً الى حد انهُ لم يكن يفضّل اللذّة على الاستقامة . وحكيماً الى حد انهُ لم يخطئ في التمييز بين الخير والشر ولا احتاج الى هداية احد . وحاذقاً في معرفة شؤون البشر واحوالهم وصرفهم الى الفضيلة وعمل الخير . وبالجملة فانهُ كان اسعد الناس واحسنهم . واذا كان احد في ريب من ذلك فليقابلْ بين اخلاق سقراط واخلاق الغير وليحكم » . انتهى

سليم عوّاد

[المقتطف] ذكر في الحاشية الاولى صفحة ٢٦٣ كلمة « اضلال الشبان » وكانت في الترجمة افساد الشبان فبدلناها بكلمة اضلال الشبان لان كلمة افساد تحتمل معنىً آخر قبيحاً تمسَّك به بعض كتّابنا . والحقيقة ان التهمة التي اتُّهم بها سقراط شرحها متهموهُ بانهُ كان يغري الشبان باستنكار قوانين الحكومة ولاسيما الانتخاب بالقرعة ويعلمهم ان يخالفوا والديهم وارصياءهم ويقتبس لهم ابياتاً من هوميروس وهسيودس مضرّة بالآداب وبالحكومة الجمهورية